

الرسو الأحمدي

نظرات في المحنة

عبدالله بن سعود آل معدي



الرسوُّ الأحمدي

نظرات في المحنة

إعداد

عبدالله بن سعود آل معدي



مقدمة

جرفت معدات وسائل التواصل اليوم كثيراً مما كان مسلماً به قبل سنين، وأحلت العقل المضمخ بشبهات الغرب محل التسليم عند البعض إلا ما ندر، وصنفت النوازل والمصائب معادن الرجال ونحن في الرخاء بعد؛ حتى رأينا رؤوساً كان من المفترض أن تلبس قبعات الغرب بدلاً من عمائم الشرق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ العنكبوت: ٢.

ولا زالت الفتن تضرب سياطها دين العبد حتى يميز الله الخبيث من الطيب، وتظهر معادن الرجال.

ولن يثبت عبدٌ وكله الله لنفسه طرفة عين، كما لن يخور عبدٌ كان له مع الله خلوات!

وبين أيدينا الآن فتنة عصفت بالمجتمع العباسي في القرن الثالث الهجري، بطلها إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل - رحمه الله - ، ومجرموها الخلفاء: المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ومعهم القاضي ابن أبي دؤاد وغيرهم من الوزراء والأمراء والفرق المذهبية. فتنة تداولها



الناس، وصارت حديث المنتديات، وامْتُحِن بسببها علماء ومحدثين
وفقهاء وأئمة: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ آل عمران: ١٧٩ ، لنظر في جريانها ونصطاد ما
تيسر من دروس في الرسو والثبات، و عِبَرَ من تقلب الأزمان وإحقاق
الله للحق ولو بعد حين.



تمهيد

لماذا الحديث عن المحنة؟

وقع الاختيار على تلك المحنة لعدة أسباب، منها:

تشابه الزمنين بعض الشيء، كون ذلك الزمن كان فيه تسلط فكري واعتقادي.

ويكفي لاختيار الحديث عن المحنة كونها من أشنع الفتن التي عصفت بالمسلمين على مر التاريخ بعد الردة.

وليعتني عبداً بقلبه ويتفقد مواطن الضعف فيه مادام في وقت الرخاء، حتى إذا نزلت بداره محنة وفتنة إذا سلاحه من العبادات الخفية السابقة يحملها بين يديه وينافح بها عن دينه ويحمي بها حماه.

ولو بذل عبداً الأسباب كلها فلن ينجو من الفتن إلا بفضل من الله ومنة، فلا حول لأبي عبد أمامها ولا قوة له إلا بالله!



أولاً : بين يدي المحنة

– التعريف بالإمام:

حتى يقدر القارئ ضخامة محنة خلق القرآن ويتصور فظاعتها عليه أن يعرف أولاً من هو أحمد بن حنبل !

إنه إمام أهل السنة والجماعة وصاحب المذهب المعروف، ولأن هذا المقام – القصير نسبياً – لا يتسع للتعريف به نظراً لمحاولة حصر هذا المقام بين كماشتي: الاختصار والتركيز، سأكتفي بذكر شيء عنه:

يقول عنه الذهبي في سيره معرّفاً به: "هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً...". وهذه عبارة صلبة تتناسب مع صلابة الإمام أمام المحنة.

ويقول عنه علي بن المديني – وهو شيخ البخاري – : "إن الله أعز هذا الدين برجلين: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة"^(١)، وثناء ابن المديني ليس عابراً بل جاء من رجل معاصر للإمام ويشاركة التخصص في الحديث ويكبره سناً – ومعروف ما يكون من ثقل الثناء على النفس هنا – .

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٧٨/٥



ولثقل مكانة الإمام أحمد كانت آذان الأمة زمن المحنة تصغي لقوله،
 فلو قدر الله أن يجيب الممتحنين له بالقول بخلق القرآن لظل قوله -
 إلى اليوم - مسطراً في أسفار الفقه، وربما أخذ به خلق لا يحصيهم
 إلا الله، لكن الله سلم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا
 يَشَاءُ﴾ (٢٧) إبراهيم: ٢٧

ويقول عنه يحيى بن معين وهو من صناديد علم الحديث، وصاحب
 للإمام أحمد: "أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل، لا والله ما
 أكون مثل أحمد أبداً"^(١). ولك أن تجعل هذه المقولة على المشرحة
 ليتبين لك كيف أن الناس - لعلو منزلة الإمام أحمد - يطالبون
 علماءهم بأن يكونوا مثله، لكن يحيى بن معين يتعذر ويحلف على
 ذلك برغم أنه أيضاً أسن من الإمام أحمد ويشاركة علم الحديث!^(٢)
 وأنت تعلم يقيناً أن هذا العلم ألفت في سيره ومناقبه أسفار وأسفار،
 فأني لي بحشرها هنا في هذه الوريقات!

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/١٩٨

(٢) التأويل الحدائ للتراث - ٣٥٥



- التعريف بالمحنة:

هذه المحنة (محنة خلق القرآن)، هي مما ابتلى بها الله عباده في العصر العباسي زمن الخلفاء الثلاثة بالترتيب : المأمون - المعتصم - الواثق ، وأول المحنة كان في سنة ٢١٨هـ، قال ابن كثير عن هذه السنة: " وفي هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن"^(١)، وانتهأؤها كان زمن المتوكل (الخليفة الذي تولى بعد الواثق) سنة ٢٣٢هـ، أي كانت مدتها قرابة ١٤ عاماً تفاوتت قوتها ما بين شدة وضعف.

إنها المحنة المعروفة تاريخياً بـ (محنة خلق القرآن)، وفي مجملها:

أن المعتزلة- وقد كانوا مقرّبين من الخلفاء- أقنعوا الخليفة العباسي المأمون في آخر خلافته أن القرآن مخلوق وليس مُنزل، فافتنع وأطاعهم، وقال بهذا القول ثم ألزم الرعية به عامة وألزم به العلماء خاصة ومنهم الإمام أحمد، وظلت الفتنة قائمة حتى توفي الخليفة، ومن ثمّ خلفه المعتصم الذي اقتنع هو الآخر بهذا القول بل وصلت المحنة في وقته إلى ذروتها حتى قام بجلد الإمام فظلت آثار الضرب عليه حتى

(١) البداية والنهاية ٢٧٥/١٠



مات - رحمه الله - ، ثم الواثق الذي آمن كذلك بأن القرآن مخلوق ونفى الإمام من بغداد، وجاء بعدهم المتوكل الذي رفع المحنة عن الناس وأعلى شأن السنة وقام بإكرام الإمام.

هذه المحنة أمتحن فيها علماء وأئمة ومحدثين، فأجاب بعضهم إلى القول بخلق القرآن متأولين قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ **النحل: ١٠٦**. والحق الذي لا مرية فيه أنهم أجابوا مكرهين لا عن إيمان وقناعة - رحمهم الله - .

وحين يقرأ البعض عن إجاباتهم هذه قد يقع في نفسه أن هؤلاء علماء سوء، أو أنهم قدموا الدنيا على الآخرة، أو أن ذلك دليل ضعف إيمان، ولم ينظر لنفسه أمام ذرات من الفتن اليومية عندما سال لعبه - يوماً - أمام حفنة مال فتأول فيها أنها حلال وسقط في الفخ! ولم ينظر لقلبه يوم تزحزح عن مكانه حين نظرت عيناه لفتاة بارعة الجمال في شاشة الجوال فسولت له نفسه أنها لقطة واحدة ثم تمضي واستهان بهذا الذنب فوقع في الفتنة! ولم ينظر لكسله في عبادة الله وأن سبب ذلك تساهله بخلفية موسيقية لمناظر خلافة في برامج التواصل عصته



نفسه أن تقبل داعي الإيمان في قلبه فرضخ للفتنة! فحذار أن تصغر
الفتنة في عينك وتكبر إذا وقع الآخرون فيها!

أقول: لقد أطبقت المعتزلة في ذلك العصر على مفاصل الحكومة،
وطوّقت خلفاء المحنة بأذرعها، حتى "وصف مسكويه سيطرة ابن أبي
دؤاد في عصر الواثق فقال: (وغلبة ابن أبي دؤاد عليه)"^(١) أي: على
الخليفة. لقد كان المعتزلة هم السبب الجوهرى في المحنة التي جلدت
ظهر إمام أهل السنة.

وابن أبي دؤاد هذا هو رأس المعتزلة الذي أقنع الخلفاء بخلق القرآن -
هو ومن معه - وسيأتي ذكره كواحد من أهم شخصيات مشهد
المحنة.

كانت هذه المحنة في زمن بني العباس الذين كانت "سيوفهم تتجشأ
من دماء منافسيهم السياسيين منذ بداية دولتهم ضد بني أمية وحتى
التطاحن بين الأخوين: المأمون والأمين ما كفت الدماء عن الجريان،

(١) التأويل الحدائى للتراث - ٢٩٦



وقد لخص الذهبي ذلك بقوله: " وقامت الدولة الهاشمية بعد قتل أمم لا يحصيهم إلا الله " (١).

إذاً هذه المحنة في زمن أسهل شيء على بعض خلفائها هو تدرج الرؤوس المضمخة بالدماء على النطع، فقد لا تحتاج المسألة عندهم إلى قاض! يكفي أن الخليفة لا يرغب ببقائه.

لقد قدّم الذهبي في سيره عن المحنة قائلاً: "الصدع بالحق عظيم يحتاج إلى قوة وإخلاص، فالمنخلص بلا قوة يعجز عن القيام به، والقوي بلا إخلاص يُخذل، فمن قام بهما كاملاً فهو صديق، ومن ضعف فلا أقلّ من التآلم والإنكار بالقلب، وليس وراء ذلك إيمان" (٢).

وحين أقبل ابن كثير على ذكر المحنة قدّم لها بأول العنكبوت: ﴿الْمَ

أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾

العنكبوت: ١ - ٣. ثم قال: " روى الإمام أحمد الممتحن في مسنده

قائلاً فيه - ثم ذكر الإسناد - عن سعد قال: أي الناس أشد بلاءً؟

(١) المصدر السابق - ٣٧٤

(٢) نزهة الفضلاء ٩٥٠/٢



فقال - أي النبي ﷺ - : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه فإن كان رقيق الدين أبتلي على حسب ذلك، وإن كان صلب الدين أبتلي على حسب ذلك، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة" (١) .

- مشعلو المحنة:

كثيرة تلك الأصابع التي أمسكت عود الثقاب وأشعلت المحنة، وأول تلك الأصابع ورأسها: أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي المقرّب من الخليفة المأمون ثم المعتصم والواثق، بل قد يصح أن يقال أنه جعل الخلفاء خواتم في أصابعه.

وإلى جانب ابن أبي دؤاد آخرون من قضاة ومسؤولين وكبار في الدولة على ذات المعتقد (٢) .

ويقف في صفوف المعتزلة فرق ومذاهب مختلفة باطلة تناوى أهل السنة والجماعة.

(١) البداية والنهاية ٣٣٧/١٠

(٢) ومعتقد المعتزلة: أن القرآن مخلوق، وينفون الصفات، وينكرون رؤية الله في الآخرة - كما سيأتي - .



- من هم المعتزلة ؟

المعتزلة فرقة تقول بخلق القرآن وبنفي صفات الله - سبحانه وتعالى - .
فالتوحيد عندهم "نفي الصفات عن الله تعالى... وكذلك يريدون به
القول بأن القرآن مخلوق" (١) ، ومن عقائدهم أنه "يجب على الله أن
يعذب العصاة ولا يعفو عنهم ولا يقبل فيهم الشفاعة ولا يخرجهم من
النار أبداً" (٢) وأن مرتكب الكبيرة "لا يسمى مؤمناً ولا كافراً بل هو
في منزلة بين الإيمان والكفر" (٣) .

ولقد تمكنوا من السيطرة على السلطة العباسية آنذاك.

فمن صور تمكنهم ما يُروى عن ابن أبي دؤاد أن أموال الدولة كانت
في يده وتحت تصرفه حتى أن الواثق قال له يوماً "وقد تضجّر بكثرة
حوادثه: قد أخليت لك بيوت الأموال بطلباتك للائدين بك
والمتوصلين إليك" (٤) .

(١) أصول الفرق والأديان - ٤٧

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) التأويل الحداثي للتراث - ٢٩٩



بل إن المأمون ورجله في الآخرة ومع أنفاسه الأخيرة أصر أن يرافقه وصيته اسم ابن أبي دؤاد فأخذ يوصي المعتصم بوصايا كان من ضمنها: "القول بخلق القرآن... وأن يدعو الناس إلى ذلك... وأوصاه بعبدالله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي دؤاد، وقال: شاوره في أمورك ولا تفارقه..."^(١). ولا يذكر المحتضر في آخر حياته إلا ما تعلق قلبه به. والحكي لا يأمن على نفسه الفتنة، ومن امتلأ قلبه بحب أمر ما فاض به لسانه خاصة في آخر حياته، و "المرء مع من أحب"^(٢).

نسأل الله خاتمة المحبين له.

(١) البداية والنهاية ٢٨٤/١٠
(٢) صحيح البخاري



ثانياً: بدء المحنة زمن المأمون

- تمهيد :

"بقي الجدل حول هذه المواضيع - أي القول بخلق القرآن ونفي الصفات - قرناً كاملاً أو أكثر لم يتعدّ أحد فيه البحث والمناظرة والرد"^(١) حتى جاء آخر زمن المأمون فأقنعتة المعتزلة بهذا القول " وما زالوا به يزينون له إعلان ذلك على الملأ، حتى أعلن سنة ٢١٢ هـ القول بخلق القرآن... فاشمأزت منه النفوس، وكاد البلد يفتتن ولكنه في إعلانه هذا لم يلزم أحداً فيما أعلنه، وترك الناس أحراراً فيما يعتقدونه إلى أن كانت سنة ثمانية عشرة ومئتين"^(٢). " قال البيهقي: ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب أهل السلف ومناهجهم، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له... واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثمانى عشرة ومئتين"^(٣). وقول البيهقي: " واتفق له ذلك آخر عمره" يجعل مفاصل العبد ترتعد من تلك النهايات التي لا يعلم أحد

(١) أحمد بن حنبل لعبدالغني الدقر - ١٤٨

(٢) المصدر السابق - ١٤٩

(٣) البداية والنهاية ٣٣٨/١٠



عنها شيئاً إلا الله، وأنه وإن بدا من العبد صالحاً فإن "الأعمال بالخواتيم"^(١) ، فهذا المأمون ممسك عن إعلان المحنة حتى آخر شهر خلافته ثم أظهرها فكان عليه وزرها إلا أن يتداركه ربه برحمته.

- المأمون :

المأمون أحد خلفاء الدولة العباسية، تولى الخلافة من سنة ١٩٨ هـ حتى ٢١٨ هـ . وأظهر المحنة في الشهور الأخيرة من آخر سنة في خلافته!

والمأمون "شخص في غاية العنجهية والتقلب... حمل الناس على المتعة ثم رجع وأخرج الخلافة عن عصبة بني هاشم وذهب بها للعلويين... ثم رجع... لبس الخضرة وترك السواد شعار الهاشميين ولبس أهل بغداد الخضرة ومزقوا كل أسود ثم عاد ورجع... وكتب في وصيته أن يُكَبَّر على جنازته خمساً... ولم يصلِّ العيد حتى انتصف النهار... وقال أشتي أن أجلس للتحديث ووضعوا له منبراً وقام وأخذ يتلو الأسانيد، ثم تركه وقال: "ما رأيت له حلاوة"..."^(٢).

(١) صحيح البخاري
(٢) التأويل الحدائ للتراث - ٣٨٩



وبتأثير من المعتزلة المحيطين به قال بخلق القرآن لكنه لم يلزم به أحداً من الرعية بادئ الأمر، لكنه لم يبق هكذا حتى أعلن " حمل علماء الأمة على القول بخلق القرآن، وليس في علما الأمة وكبار محدثيها أحد يقول بهذه المقالة"^(١).

وبدأ امتحان العلماء وإجبارهم بالقول بخلق القرآن!

– دعوة العلماء للقول بخلق القرآن:

"دُعي الشيوخ وأمثالهم إلى الاستجابة لما يريد من المأمون، ومن وراء المأمون، من القول بخلق القرآن، ومن أبي دُعي إلى مناظرة مظلمة بالسيف مفروشة بالنطع والحديد، وحرية البحث مضمونة الجلد، أو السجن، أو الموت الزؤام"^(٢).

ثم كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم – وهو رئيس شرطة بغداد أو نائب الخليفة على بغداد – أن يُحضِر بعض العلماء فيسألهم عن خلق القرآن "فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعاً: إن القرآن مخلوق... فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل

(١) أحمد بن حنبل - ١٤٩

(٢) المصدر السابق - ١٥٠



الحديث... فخلى سبيلهم"^(١) ، وتشهير أمرهم وسيلة ضغط قوية على بقية العلماء.

ثم كتب المأمون كتاباً ثانياً جهّلاً وسفّه فيه من لم يُقرّ بخلق القرآن، وتبين فيه طيش عقله وخفة رأيه، ومما جاء في ذلك الخطاب قوله:

"وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة - أي أن القرآن كلام الله - حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين"^(٢) بل تعدى - هذا الأخرق - ذلك واتهم العلماء الأجلاء المنافحين عن الدين والذين شابت لحاهم في التعليم بأنهم "سهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم..."^(٣) .

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ **المائدة: ٤١**

عندما يعمى القلب تتبدل المفاهيم فيصبح المدافع عن الدين في عيون الكثيرين متواطئاً مع أعدائه، وتوزع الخيانة بالمجان، وترمى التهمة لشيء وبدون شيء! إنها فتنة لها أطيظ من ثقلها. لقد أسقطت فيها هيبة

(١) تاريخ الطبري ٦٣٤/٨

(٢) الطبري ٦٣٦/٨

(٣) الطبري ٦٣٦/٨



العلماء وحُطَّ من قدرهم أمام الأمة عامة وأهل بغداد خاصة حتى رُموا
بالإلحاد وليس بعد ذلك من تهمة!

خليفة يملك دولة مترامية الأطراف يقول - في خطاب عام - عن
علماء أمة الإسلام: ليس لهم حظ من دين! بل جردهم حتى من
العدالة والأمانة! إنه أمر في غاية الغرابة!

هذه اللغة الفرعونية لم تقف عند هذا الحد بل رمى العلماء بتهمة
سياسية أيضاً وجاء بباقة أخرى حين اتهمهم بأنهم يتلمظون على
السلطة ويريدون نزعه من كرسي الحكم! فيا لله كيف وقع ذلك على
العلماء؟! وما الذي يحدث الآن في بغداد؟!

إن أحد الخلفاء آنذاك ليس شيء أهون عليه من أن تهوي من لسانه
كلمة (القتل) ليهوي وراءها رأس عالم ثقيل بنصوص الوحيين!

لقد كانت ردود المأمون على العلماء الممتنعين عن القول بخلق القرآن
كأحمد بن حنبل ومحمد نوح وغيرهم ردود لا تصلح أن تكون
للسفهاء فضلاً عن العلماء، ولا يصح أن تكون من عامي فضلاً عن
أن تكون من خليفة يملك إمبراطورية يخشاها العالم، فمن تلك الردود



مثلاً رده على الإمام أحمد إذ قال مخاطباً نائبه على بغداد ليوجه الرد - بدوره - إلى الإمام:

"وأما أحمد بن حنبل فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها، واستدل على جهله وآفته بها"^(١). أهكذا بلغ به الغرور فيخاطب الإمام بالجهالة!

وهذا يذكر بحديث النبي ﷺ حين قال: "سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويضة، قيل وما الرويضة؟ قال: الرجل التافه في أمر العامة"^(٢).

- امتناع بعض العلماء وترحيل الإمام إلى طرسوس:

لما امتنع بعض العلماء عن القول بخلق القرآن هددهم الخليفة بالضرب وقطع الأرزاق "فأجاب أكثرهم مكرهين، واستمر على الامتناع عن ذلك: الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح... فحُملا على بعير وسُيِّرا إلى الخليفة عن أمره بذلك - من بغداد إلى طرسوس في تركيا

(١) الطبري ٦٤٢/٨
(٢) صححه الألباني



الآن وكان هناك لحرب الروم - فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب... فسلم على الإمام أحمد وقال له: يا هذا! إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم، إنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيئهم إلى ما يدعونك إليه فيجيئوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل، وإن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميداً. قال أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع...^(١) وورد أنه - رحمه الله - بكى من هذه النصيحة الآتية من الصحراء.

هذه نصيحة من أعرابي لم يحتقر نفسه في إنكار المنكر وإحقاق الحق، ثبت الله بها قلب عالم أمة ظل ثباته إلى اليوم قُلَّةٌ يرنو لها كل مفتون ممتحن.

وقبل أن يُحمل الإمام ومحمد بن نوح مقيدين بقيا في الحبس أياماً^(٢). بالله أرجع البصر كرتين في قول الأعرابي الآنف: "إنك وافد الناس!" لو بعج المتأمل هذه العبارة رأى في بطنها معاني جليلة، هذا الأعرابي

(١) البداية والنهاية ٣٣٨/١٠

(٢) نزهة الفضلاء ٩٥٢/٢



جمع الناس في أحمد، وكأن العامة وافدون على المأمون في أحمد، وأيضاً تبين هذه العبارة مدى تقرب أهل بغداد لما سيقوله الإمام في خلق القرآن، وانتظارهم لما يفضي إليه هذا المسير إلى طرسوس!

ولم يترك الناس الإمام أحمد، لكنهم جاؤوا له ليقنعوه بالتنازل، وليّنوا له شدة الأمر، فقليل إن بعضهم "جعلوا يذاكرون أبا عبدالله بالرقعة في التقية وما ورد فيها، فقال: كيف تصنعون بحديث خباب: إن من كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار، لا يصده ذلك عن دينه"^(١) فأيسوا منه.

قد ترى في الفتن من أقرب الأقربين من يرقق دينك وكنت تظنه الركن الشديد!

وحديث خباب الذي أشار إليه الإمام في رده على أولئك هو أن خباب بن الأرت رضي الله عنه ومعه جماعة من الصحابة في فتوة الإسلام ووقت تسلط المشركين كان يناهم تعذيب وتنكيل، يقول خباب: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم

(١) نزهة الفضلاء ٩٥٣/٢



يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدده ذلك عن دينه، والله ليرتد الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون" (١) .

– موت المأمون قبل وصول الإمام:

وأثناء مسير الإمام إلى الخليفة مقيداً على بعير متوجهاً إلى طرسوس قد بلغ الرقة (٢) " ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: يعزّ عليّ يا أبا عبدالله أن المأمون قد سلّ سيفاً لم يسله قبل ذلك... قال: فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: ... اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته... فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل. قال أحمد: ففرحنا... فردونا إلى بغداد.. ومات صاحبه محمد بن نوح

(١) صحيح البخاري
(٢) مدينة بالعراق



في الطريق وصلى عليه عليه أحمد، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان، فأودع السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً...^(١).

يا راقد الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً

(١) البداية والنهاية ٣٣٨/١٠



ثالثاً: ذروة المحنة زمن المعتصم

جاء زمن المعتصم وكانت خلافته من سنة ٢١٨ هـ حتى ٢٢٧ هـ ، وقد تشبع بالاعتزال مثل المأمون، وله سطوة رهيبة وهيبة عظيمة، وقد قَرَّب منه ابن أبي دؤاد عملاً بوصية المأمون، ولا زالت حاشيته تغلي على الإمام أحمد وتأمل من المعتصم القصاص منه.

- الدخول على المعتصم:

أحضر المعتصمُ الإمام أحمد من السجن وقد "زاد في قيوده، قال أحمد: فلم أستطع أن أمشي بها... وحملتها بيدي، ثم جاؤوني بدابة فحُملتُ عليها فكدت أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني فسلم الله حتى جئنا دار الخلافة... ثم دُعيت فأدخلت على المعتصم... فلما دنوت منه وسلمت قال: ادنه، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال: اجلس! فجلست وقد أثقلني الحديد فمكثت ساعة"^(١) ثم أمر المعتصم مَنْ عنده من علماء السوء بمناظرة الإمام أحمد، ولا زال الإمام يقمع حججهم واحدة تلو الأخرى، حتى

(١) البداية والنهاية ٣٣٩/١٠



غضب ابن أبي دؤاد لتهاوي حججه فقال: "يا أمير المؤمنين: اقتله، هو ضال مضل" (١). فيقول المعتصم: "كلموه .. ناظروه" (٢).

يقول الإمام: "فيكلمني هذا فأرد عليه.. ويكلمني هذا فأرد عليه، فإذا انقطعوا يقول لي المعتصم: ويحك يا أحمد! ما تقول؟ فأقول: يا أمير المؤمنين! أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ حتى أقول به!" (٣).

وفي هذا النص يتبين كيف أن مجلس الخليفة مليء بالاعتزال والعقائد الباطلة، والإمام واحد أمام هذه الجموع لا يكاد يتنفس من كثرة الحجج التي تنهال عليه وهو ينافح بسهامه من الكتاب والسنة رامياً في كل اتجاه، والمعتصم يموج على كرسيه من الحنق وهو يراها تصرع هذا وذاك!

كان الإمام وحيداً في وجه دولة!

انتهى اليوم الأول.. وجاء اليوم الثاني فكان كسابقه.

(١) نزهة الفضلاء ٩٣٨/٢

(٢) أحمد بن حنبل - ١٧٨

(٣) المصدر السابق



ثم لما كانت ليلة اليوم الثالث أُلقي في روع الإمام أن حدثاً ما سيحصل غداً^(١).

ودخل الإمام مجلس المعتصم، وبدأ الجدل، ومع ارتفاع حرارته يذكر ابن كثير وغيره أن المعتصم قال في لحظة تحول قبلة المناظرة إلى الهوى وإشباع الرغبة في الانتصار - قال: "يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي"^(٢). إنها تعني أنك يا إمام ستمشي بنعلٍ من ذهب.. الدنيا كلها انطرحت عند قدميك.. لكنه داسها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

- قلب القضية إلى اتهام سياسي:

ولما رأوه صامداً بعزم وثبات عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ليجعلوا الخليفة يصطلي من الغضب، إذ قال أحدهم للمعتصم لما رأوا وهنه في أمر الإمام: "ليس من تدبير الخليفة أن تخلي سبيله ويغلب خليفته". فعند ذلك حمي واشتد غضبه"^(٣) سياسة نتنة تلك التي تدير ظهر الحقائق فيلقونها ولي الأمر وهي مدبرة! لقد صبغوا القضية بالسواد

(١) المصدر السابق

(٢) البداية والنهاية ٣٤٠/١٠

(٣) البداية والنهاية ٣٤٠/١٠



فحولوها قضية سياسية شخصية! وهذا أسلوب غاية في الوقاحة.
لازال - عند البعض - صالحاً للاستعمال في زمننا هذا.

ومثل هذا الموقف موقف فرعون من موسى - عليه السلام - حين
أراد فرعون تأليب الرأي العام على موسى فحوّل القضية من قضية
دينية إلى سياسية فأعلن في بيان عام أن رغبة موسى هي السلطة
والسيطرة على الملك فقال لهم إنه: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) الشعراء: ٣٥، وهو ما جاء إلا لدعوة
الناس لدين الله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤)
حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
﴿الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥ .

- جلد الإمام:

ولما لم يستجب الإمام لهم، غضب المعتصم غضباً شديداً فقال:
"خذوه واسحبوه واخلعوه... قال أحمد فأخذت وسُحبت وُخِلت" (١)
"وجلس المعتصم على كرسي ثم قال: العُقابين والسياط، فجيء

(١) المصدر السابق



بالعقابين فمُدَّت يداي فقال بعض من خلفي: خذ ناتئ الخشبتين بيديك، وشُد عليهما، فلم أفهم ما قال، فتخلعت يداي... قال صالح^(١): قال أبي: ولما جيء بالسياط... قال للجلادين^(٢): تقدموا، فجعل يتقدم إلي الرجل منهم فيضربني سوطين وهو يقول في كل ذلك: شُد قطع الله يدك... وجعل عُجيف^(٣) ينحسني بقائمة سيفه وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟! ... وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي، اقتله! فقال لي^(٤): ويحك يا أحمد ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به، فرجع وجلس. وقال للجلاد: تقدم وأوجع قطع الله يدك، ثم قال الثانية، وجعل يقول: ويحك يا أحمد أجبني، فجعلوا يقبلون علي ويقولون: يا أحمد إمامك على رأسك قائم، وقال عبدالرحمن^(٥): مَنْ صَنَعَ مِنْ أصحابك ما تصنع؟...^(٦) ولا زال الضرب بالإمام والسياط تنهش جسده حتى قال -رحمه الله- متحدثاً عن نفسه: "فذهب عقلي، ثم

(١) ابن الإمام أحمد

(٢) أي المعتصم

(٣) أحد جند المعتصم

(٤) أي المعتصم

(٥) أحد خواص الخليفة

(٦) نزهة الفضلاء ٩٥٧/٢



أفقت بعدُ، فإذا الأقياد قد أُطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر: كبيناك على وجهك وطرحنا على ظهرك باريّة^(١) ودسناك... فما شعرتُ بذلك، وأتوني بسويق، وقالوا: اشرب وتقياً، فقلت: لا أفطر!"^(٢) لقد كان صائماً عندما ضرب -رحمه الله- : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

الثبات عزيز.. ولا يكون إلا بتوفيق الله، ومن توفيق الله لعبده هذا أن جعله يتزود بالعبادة لمواجهة خصوم التوحيد، ولا تجدد - غالباً - عبداً راسياً زمن الفتن إلا وله حظ من عبادة خفية!

"قال صالح:.... وكان مكثه في السجن منذ أخذ إلى أن ضرب ونُحلي عنه ثمانية وعشرين شهراً"^(٣) وقيل أكثر.

(١) حصير

(٢) نزهة الفضلاء ٩٥٨/٢

(٣) نزهة الفضلاء ٩٥٨/٢



– خروج الإمام من السجن:

ولما أُطلقت الأقياد من الإمام كان هذا في اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ٢٢١ هـ وعدد الأسواط التي ضرب بها نيفاً وثلاثين سوطاً.

"قال صالح: ... أُخرج أحمد بن حنبل بعد أن اجتمع الناس على الباب وضجوا حتى خاف السلطان فخرج"^(١)

يقول أبو زرعة – أحد العلماء – : " دعا المعتصم بعمّ أحمد ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم هو أحمد بن حنبل، قال: فانظروا إليه، أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم. ولولا أنه فعل ذلك لكنت أخاف أن يقع شيء لا يُقام له. قال: ولما قال: سلمته إليكم وهو صحيح البدن هدأ الناس وسكنوا"^(٢)

" وأبو زرعة كان يتوقع أن المعتصم لو لم يفعل ذلك لربما وقعت فتنة، وأبو زرعة حين وقعت المحنة كان شاباً في العشرينات، ومما يؤكد توقع أبي زرعة أنه قد تعددت الروايات التي جاء فيها أن بعض طلاب

(١) أحمد بن حنبل - ١٨١

(٢) نزهة الفضلاء ٩٥٩/٢



الحديث استأذنوا الإمام أحمد في الخروج المسلح فنهاهم وأمرهم بالصبر" (١)

يقول الذهبي في تعليق بديع عن إطلاق المعتصم للإمام أمام الناس:

"ما قال هذا مع تمكنه في الخلافة وشجاعته إلا عن أمر كبير كأنه خاف أن يموت - يعني أحمد - من الضرب، فتخرج عليه العامة، ولو خرج عليه عامة بغداد لربما عجز عنهم" (٢)

"ولما رجع إلى منزله - أي الإمام أحمد - جاءه الجرائحي (٣) فقطع لهما ميتا من جسده وجعل يداويه... والنائب - أي نائب الخليفة على بغداد - في كل وقت يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً... فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك... وجعل - أي الإمام أحمد - كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة... وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا

تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤)

(١) التأويل الحداثي للتراث - ٣٦٠

(٢) نزهة الفضلاء ٩٥٩/٢

(٣) الجراح

(٤) البداية والنهاية ٣٤١/١٠



رابعاً: المحنة زمن الواصل

ولي الخلافة بعد المعتصم الخليفة الواصل من سنة ٢٢٧هـ حتى ٢٣٢هـ.
ولا زالت الحاشية هي الحاشية.

لم يُصَب الإمام أحمد زمن الواصل بأذى في جسمه، غير أن الواصل أمر الإمام ألا يساكنه بأرض. ولم يكن الواصل غيباً حتى يطيع ابن أبي دؤاد فيمتحن الإمام وقد رأى ما صنع أهل بغداد بالمعتصم.

وفي سنة ٢٣١هـ حدث حدثٌ عجيبٌ يجف معه ريق المؤمن من الأسي، ذلك أن الواصل حين وقعت المفاداة^(١) بين المسلمين والروم أمر بامتحانهم وسؤالهم -أي امتحان الأسرى- في خلق القرآن فمن أجاب وإلا تضرب عنقه^(٢) " وأمر الواصل أيضاً بامتحان الأسرى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة، فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة

(١) يعني تبادل الأسرى بين المسلمين وأعدائهم.

(٢) البداية والنهاية ٣١٢/١٠



فُودي^(١)، وإلا تُرك في أيدي الكفار، وهذه بدعة صلعاء شنعاء عمياء
صماء^(٢)

إنها "حادثة مشهورة إذا قرأها المؤمن زفر زفرة تتقصف ضلوعه منها...
كيف يترك ابن أبي دؤاد الأسير المسلم مكروباً بين فكي النصارى
الحربيين لأجل أن يقول أن كلام الله سبحانه صفته منزل غير
مخلوق؟! "^(٣)

إن لله عباداً أرخصوا الدنيا وإن كان فيها جنتهم وحرثهم، ما ضرَّ
عُمر ألا يعرفهم ما دام أن الله يعرفهم!

وظل الإمام "مختفياً في البيت لا يخرج إلى الصلاة ولا إلى غيرها حتى
هلك الواثق"^(٤)

ومما يُذكر في زمن الواثق أن رجلاً طريفاً دخل على الواثق فقال: " يا
أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن. قال: ويلك! القرآن يموت؟
قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت، بالله يا أمير المؤمنين من يصلي

(١) أي جعلوا فداءه أسيراً من الروم وأطلق سراحه.

(٢) البداية والنهاية ٣١٢/١٠

(٣) التأويل الحدائث للتراث - ٣١٠

(٤) نزهة الفضلاء ٩٦٠/٢



بالناس التراويح إذا مات القرآن؟ فضحك الخليفة وقال: قاتلك الله
أمسك!^(١) . وهذه الرواية - على طرافتها - إلا أنها كشفت بجلاء
هشاشة القول بخلق القرآن، ومع أنه قد يعد من أقزم الردود لكنه صرع
الباطل العاتي!

(١) أحمد بن حنبل - ١٩٠



خامساً: خمود المحنة زمن المتوكل

وما من شدة إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاءٌ

لما هلك الواثق تولى بعده المتوكل ف" استبشر الناس، فإنه كان محباً للسنة... ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق: لا يتكلم أحد بالقول بخلق القرآن"^(١) ثم استدعى المتوكل الإمام أحمد فكتب إليه: "إني أحب أن أنس بقربك وبالنظر إليك ويحصل لي بركة دعائك"^(٢).

لكن وقبل انتهاء المحنة حصل ما كاد أن يكدر صفوها، وأطلت فتنة جديدة برأسها، فقد وشى أحدهم للمتوكل كذباً وبهتاناً أن الإمام أحمد يُبايع له سراً في منزله "فأمر الخليفة نائب بغداد أن يُكبس منزل الإمام أحمد من الليل. فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد جالساً في داره مع عياله، فسألوه عن ذلك"^(٣) فنفاه وبيّن أنه مبايع للخليفة في السر والعلن وأنه يدعو له.

(١) البداية والنهاية ٣٤٣/١٠

(٢) البداية والنهاية ٣٤٤/١٠

(٣) البداية والنهاية ٣٤٣/١٠



علم المتوكل أنهم يكذبون عليه كثيراً فلم يطع أحداً بعد ذلك في الإمام وظل يجله ويقدره حتى أنه أرسل له عشرة آلاف درهم لكن الإمام امتنع من قبولها، فخشي المقربون من الإمام أن تكون بينه وبين الخليفة نفرة ووحشة فأطاعه وأبقاها عنده، فلما كان آخر الليل استدعى الإمام أهله وعياله وقال: "لم أنم هذه الليلة من هذا المال، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرقها في الناس... فلم يبق منها درهماً... وتصدق بالكيس الذي كانت فيه، ولم يعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد"^(١)

وكان الخليفة دائماً يسأل عن حال الإمام ويرسل له طبيباً يتفقد صحته، ويرسل له من أنواع الأطعمة والأشربة فلا يأكل منها شيئاً ويظل على صومه طاوي البطن - رحمه الله -.

إنه رجل لا يريد سوى الآخرة.. والآخرة فقط.

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٤٤



سادساً: وفاته - رحمه الله -

"قال ابنه صالح: كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف، فقلت: يا أبت ما كان غداؤك؟ فقال: ماء الباقلا... وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بجزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن... وقال الدارقطني: سمعت أبا سهل بن زياد سمعت عبد الله بن أحمد يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر.

وقد صدق الله قول أحمد في هذا، فإنه كان إمام السنة في زمانه، وعيون مخالفه أحمد بن أبي دؤاد وهو قاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته، ولم يتلفت إليه، ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان"^(١)

توفي الإمام أحمد - رحمه الله - يوم جمعة بعد مضي ساعتين منه، ولم يدفن إلا بعد العصر.

(١) البداية والنهاية ١٠/٣٧٤ ط. إحياء التراث



خاتمة

هكذا يعلمنا التاريخ أن الباطل تمجّه الأزمان ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ ﴾ **الرعد: ١٧**، وأن المعارك الفكرية التي تدور رحاها في عصر من العصور سيضع مقاتلوها أسلحتهم وينكشف الغبار عن نصر مؤزر للحق - طال الزمان أم قصر - ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۗ ﴾ **محمد: ٤** فالعبرة بالصبر والثبات لا بالانتصار المؤقت، لأن العاقبة للمتقين حتماً.

إن في المحنة لعبراً.. وقارئها يتصبب عرقه وترتعش يداه وهو يقلب صفحاتها خوفاً من أن يتلى بأقلّ منها فلا يصبر، وأما أمثالها فلن يثبت لها إلا رجل منّ الله عليه من بيننا.

تلك المحنة الرهيبة زحام من الدروس، ولكن لمن تأمل.. وتأمل.. وتأمل، فإيا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك حتى نلقاك.

عبدالله بن سعود آل معدي

٢٩ - ٥ - ١٤٣٩ هـ



هذا الكتاب منشور في

سِبْكَرِ الْأَوْكِي

www.alukah.net